أكثر ما خلَّفه العثمانيون في الحجاز:

الصَّمت الحضاري السَّحيق والقمع والتنكيل

إذا كان الحَمَلة الحقيقيون للإســلام قد فتحوا الأمصار وأسَّسوا لحضارات قائمة الذات في كل من العراق وإيران والشــام والأندلس، فلأنهــم اعتبروا هذه المناطق جزءًا لا يتجــزأ من تربة الإسلام، وعملوا على إدماج أهلها حتى صاروا أشد دفاعًا عن الدين وهوية المسلمين.

على الجانب الآخر لم يكن جزاء الإحسان هو الإحسان، ولم يتشبَّع الأتراك ثقافة العرفان، فكان القوم الذين أنعم الله عليهم بالإســلام هم أشد بأسًــا على أهله ومهبط وحيه. ورغم أنهم ادَّعَوا الخير والانتصار للدين، والدفع من أجل خير الإســلام والمســلمين، إلا أنهم أفســدوا ولم يُصلِحوا وأهلكوا الحرث والنســل انتصارًا لِعِرق ادَّعى الإسلام من أجل ذبح أهله، وأعلن الإيمان من أجل استباحة أرضه، ولــم يَردَعه دين، ولم يُوقِفه خُلق، فجعل من مهبط الوحي فضاءً للســلب والنهب والقتل والتنكيل، ليرسم صورة قاتمة عن التواجد التركي في بلاد الإسلام.

> نَشط العثمانيون في محاولة تتريك العرب من خلال مدارسهم التي فشلت فشلاً ذريعًا أمام الرفض العربي في الحجاز

شــكَّل التعامل الاســتعلائي التركي تجاه العرب مقدمات لمراكمة حالة الرفض للاســتعمار العثماني بالجملة، وخلق رِدَّة فِعل عكســية تجاه هذا الاحتــلال الذي أراد أن يمســح الهوية العربية للمنطقة، وهو ما فضح حقيقة المشــروع العرقي الــذي اســتغل الدين من أجــل أهداف التوســع والانتشار، وليس لأهداف البناء والإعمار.

وإذا كانــت المواجهات بين العرب والأتراك حتمية خلال القــرن الماضي، فإن مقدماتها كثيرة ومتعــددة، انطلاقًــا من "منع العــرب عن التكلم باللغة العربية وإجبارهم بالتحدث باللغة التركية.. وتراجُع الأوضــاع الاقتصادية وانتشــار الفقر بين العرب، بينما كان حُكام وأعيــان الدولة العثمانية يســتغلون خيرات البلاد العربيــة ويتمتعون بها، وهو ما شلَّ النهضة العربية في النصف الثاني من القرن 19، وتسبَّب في خَلْق ثغرة كبيرة في التطور العلمي والفكري والاقتصادي ما بين الدول العربية والدول الأوروبية".

ويمكن القول أن التغيرات السياســية التي ضربت إسطنبول لم تغير من العقيدة الإقصائية للأتراك تجاه العرب، بل أخذ هذا الحقد شكلاً مؤسساتيًّا، فقد "نشطت في هذا العهد الدعاية الطورانية نشاطًا مشــهودًا، فصدرت في الآستانة كتب تركية مختلفة حملت مطاعن جارحة في عظماء الإسلام العرب، وقام خطباء الترك يدعون إلى نبذ كل ما هو عربي، وإحياء كل ما هو طوراني".

لقد شكَّل اللســان العربي عقدة للعثمانيين، وعائقًا أمام شرعنة خلافتهم المزعومة، وبالتالي فقــد جعلوا من القضاء علــى اللغة العربيــة إنهاءً للتفرد العربــي بالفهم والاســتيعاب والتفكيك والاستنباط، الذي جعلهم المؤتمَنين على الرسالة، والحاملين لعِظَم هذه الأمانة.

وهنا نسجل أن محاولات تتريك القبائل العربية قد وجدت طريقها إلى المناطق التي أخضعها الأتــراك لحكمهم، ووصلت بهم الجرأة إلى محاولة طمس معالم اللغة العربية حتى في قلب الجزيرة العربية، بل وفي مكة المكرمة، تلك البقعة الطيبة التي نزل فيها الوحي على الرســول الكريم بلســان عربي فصيح.

في هذا الصدد قام الأتراك ببناء "مدرســة على الطريقة الحديثة (المدرســة الرشيدية)؛ لتعليم اللغة التركية والرياضيات والتاريخ، ونُدِب للتدريس فيها بعض الأتراك... وكانوا يُلقنون دروسهم باللغة التركية، حتى إن قواعد اللغة العربية كانوا يشــرحونها باللغة التركية، وقد قيل يومها: إن غرض الأتراك من إنشائها هو تتريك العرب".

من التتريك إلى التجويع، ومن القمع إلى الترحيل، هكذا عاش العرب تحت نير اســتعمار تفنَّن في أساليب الترهيب والتغريب، ووصل الاستعلاء ومحاولات الاستعباد إلى محاولة طمس كل ما هو عربي، ســواء تعلق الأمر باللسان أو بالإنســان، وذلك من خلال توطين اللغة التركية في البلاد وإخلاء الأرض من العباد، وهنا ســجَّلت كتب التاريخ كيف "اشتدت عزمة فخري باشا على ترحيل أهل المدينة بعســف ما بعده عســف، رحَّلوا امرأة وابنتَيها وتركوا أباهم في المدينة يهرب إلى ينبع، ما سألوا كيف تعيش الأم وبناتها في الشام، ومن يتولى الرعاية، ماتت الأم، وضاعت البنت، ورجعت إلى المدينة بنت وحدها، فسألوها عن أبيها في ينبع وقد وصلت بالباخرة مع أهل المدينة، عرفوا أباها، فسلَّموها إليه".

إن واقــع الحال الذي عاشــه العرب تحــت الحكم العثمانــي جعلهم يســتنهضون الهمم، ويتداولــون واقع الحال، خاصة بعد انفتاحهم على باقي الأجناس والثقافات، وعلى إثر ذلك "اســتبان العرب مبلــغ ضياع حقوقهم في ظل دولة لا تحفــل إلا بكيانها الخاص، وعنصرها الحاكم، وتســلُّط خليفتهــا المطلق، وتحت الضغط والقمع كان لزامًــا أن يحدث الانفجار كنتيجة حتمية ومآل طبيعي لأية سياســة قمعية لم تَرعَ في العباد إلًّا ولا ذِمَّة، ورأت في الإسلام جسرًا نحو التوسع، والعربية عائقًا أمام شرعنة الاحتلال التركي الأعجمي.

لقد خرج الاســتعمار التركي من البلاد العربية كمــا دخل، حتى إنك لا تكاد تجد له الآن أثرًا، فلم يكــن العثمانيون أهل حضارة وبنــاء، وإنما قوم تخريب وهدم، لتعيش البــلاد العربية تحت الاحتلال العثماني حالة من "الصمت الحضاري الســحيق" لم تخرج منه الأمة إلا بعد تضحيات سطر فصولها عشرات الآلاف من الشهداء.

المراجع:

1) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية الكبرى (بيروت: دار الكاتب العربي، د.ت).

2) أحمد السباعي، تاريخ مكة.. دراسة في السياسة والعلم والاجتماع والعمران (الرياض: مكتبة العبيكان، 1999).

3) محمد حسين زيدان، ذكريات العهود الثلاثة (بيروت: دار جداول، 2011).